الفصل الحادي والعشرون

في دين قدماء المصريين وما إشتملت عليه المعابد من مباني ورسومات

إختلف المؤرخون في دين المصريين فجرى أكثرهم على أنهم كانوا أمة موحدة تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وهو قول المؤرخ «يورفير» وغيره وقال هيرودوت إن أهل طيبة كانوا يعبدون الله وحده ويقولون هو الأول والآخر الحي الأبدي السرمدي وروى «جامبليك» أنه سمع من كهنة المصريين نفسهم أنهم يعبدون الله وحده ويقولون إنه فاطر السموات والأرض رب كل شيء وهو المالك لكل شيء الخالق لكل شيء الذي لم يخلق ولم يتجزأ ولا تراه العيون يعلم ما تكنه الضمائر وما تخفيه الصدور وهو الفاعل المختار لكل شيء وفي كل شيء إلى أن قال أما ما نراه من كثرة المعبودات فجميعها رمز يرجع إليه وحده بمعنى أنها تدل على ذاته العلية وصفاته الأزلية وهذا هو إعتقاد كهنة المصريين المدوّن في كتبهم المقدسة اهـ وقال المؤرخ «شميليون فيجاك » قد إستنبطنا من جميع ما هو مدوّن على الآثار صحة ما قاله المؤرخ «جامبليك» وغيره من أن المصريين كانوا أمة موحدة لا تعبد إلا الله ولا تشرك به شيئًا غير أنهم أظهروا صفاته العلية إلى العيان مشخصة في بعض المحسوسات وأنهم لما غرقوا في بحر التوحيد علموا أبدية الروح وأيقنوا بالحساب والعقاب ولا عبرة بما قاله بعض مؤرخي الأجانب الذين حضروا محافل المصريين الدينية وشاهدوا بها كثرة تماثيلهم الرمزية وأنهم لجهلهم بلغتهم وبحقيقة عبادتهم حملوا الأمور على ظاهرها وحكموا عليهم بالكفر والإلحاد مع أنهم لم يفهموا منهم المراد فكأنهم دخلوا في قول الشاعر

وكـــم مـــن عائـــب قـــولًا صـــحيحًا وآفتـــه مـــن الفهـــم الســـقيم

وكيف يتصور أن المصريين مع غزارة علمهم وتوقد مدركاتهم وصحة أفهامهم وصدق فراستهم ومهارتهم في عمل كل شيء يتخذون المنحوتات أربابًا ويميلون إلى نزغات الشيطان وفي بعض التواريخ المعتبرة أن موسى عليه السلام دخل منذ شبيبته في مدارس الكهنة وتعلم منهم اسم الله المكنون الذي كانوا يصونونه عن غيرهم من العامة.

وقال بعضهم إن لفظة «أدوناي» العبرانية التي معناها الله مشتقة من لفظة «أدن» أو «أتن»

المصرية ومعناها الشمس عند العامة وأما عند الخواص فمعناها الله القادر وقد وجد في بعض الأوراق ما يدل على وحدانيتهم منها «الله واحد لا شريك له وهو خالق كل شيء» ومنها «الله فرد أزلي كان قبل كل شيء ويبقى بعد كل شيء لا بداية لأوّله ولا نهاية لآخره» وغير ذلك.

وقال مسپرو نقلًا عن كبار مؤرخي هذا العصر ما ملخصه من تأمل في الآثار الباقية إلى الآن بالديار المصرية واللوحات الدينية المنقوشة بالهياكل وما على الورق البردي هالته كثرة هؤلاء الآلهة المصورة عليها لأن الإنسان لا يقع نظره الأعلى صور وتماثيل مختلفة الهيآت والأشكال خضعت لها جباه جبابرة ملوكهم وأحبار كهنتهم حتى يظن أن مصر كانت مسكونة بهؤلاء الآلهة وأن أهلها ما خلقوا إلا لعبادتها وسبب ذلك أن المصريين كانوا أمة مخلصة في العبادة أما بالطبيعة أو بالتلقين والتعليم فكانوا يرون أن الله في كل مكان فهامت قلوبهم في محبته وإنجذبت أفئدتهم إليه وإشتغلت أفكارهم به ولازم لسانهم ذكره وشحنت كتبهم بمحاسن أفعاله حتى صار أغلبها صحفًا دينية وكانوا يقولون إنه واحد لا شريك له كامل في ذاته وصفاته وأفعاله موصوف بالعلم والفهم لا تحيط به الظنون منزه عن الكيف قائم بالوحدانية في ذاته لا تغيره الأزمان وسيان بين ماضيها ومستقبلها فهو الذي ملأت قدرته جميع العوالم وهو الأصل والفرع لكل شيء و كلاهما واحد[1] ثم عددوا صفاته العلية وميزوها بالأسماء وإشتقوا منها نعوتًا شخصوها في المحسوسات وفي كل شيء نافع وجميعها يرجع إليه ولا جل التمييز بينها جعلوا لكل اسم تمثالًا فإنتشرت هي وما إشتق منها حتى ملأت المدن والبلاد وميز كل ناحية معبوداتها عن غيرها لعدم الإلتباس فنشأ عن ذلك جملة معبودات متباينة في الشكل والهيئة دخلت فيها الحيوانات والطيور والأسماك والحشرات ولكل واحدة وظيفة خاصة ترجع إلى صفاته تعالى من ذلك معبودهم «أمون» وهو الله الذي ينبعث منه كل شيء يعطي لنور العقل القوة لإدراك الأشياء الخفية ومنها «فتاح» وهو الذي أتقن فعل كل شيء ومنها «أوزيرس» وهو الله الرحيم فاعل الخير فبناء على ما ذكر يكون أمون وفتاح وأوزيرس أسماء لصفات مترادفة ترجع إليه تعالى.

وذكر بروكش باشا أنهم حصروا صفاته العلية في جميع الأشياء النافعة كالشمس والنور وغيرهما وعبدوا هذه المنفعة إذ هو مصدرها وأصلها ولا جرم أن الكهنة كانت تعرف الحقيقة وتقصد في عبادتها وجهه الكريم أما العامة وهم السواد الأعظم فصار واسع توالى الإعصار

---

[1] من هنا أتت عبادة الأوثان عند جميع الملل.

يعبدون الأشياء لذاتها و يتقربون إليها زلفى لجهلهم بالحقائق وفشا الكفر فيهم ومما يثبت ذلك ما رواه بعض المؤرخين أنه كان مكتوبًا في أحد الأسفار المصرية المنسوبة إلى هرمس «إدريس عليه السلام» وصورته «يا مصر يا مصر يأتي عليك يوم يتغير فيه دينك القويم ومنهجك القديم فتظهر الخرافات وتعم الضلالات ويستبدل الإيمان بعبادة الأوثان ويطفيء الإلحاد نور الهدى والرشاد وتنحصر أخبارك في بعض أحجارك» وقال ماريت باشا إتفق كثير من قدماء المؤرخين على أن المصريين كانوا يعبدون الله وحده لكن من الأسف أننا لم نجد لهذا الآن على الآثار أدنى شاهد حتى كنا نجعل قولهم في الكفة الراجحة وأن الشك في صحته أخذ كل يوم يزداد وقال غيره إتخذ المصريون كل شيء من ربا إلا الرب جل وعلا وهذا مصداق قوله تعالى «إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفًا ولم يك من المشركين» أي كان وحده في زمنه موحدًا فهو أمة بنفسه لإعتزاله إياهم وإنفراده برأي يخالف آراءهم ونتيجة القول أن الكهنة هي التي كانت تعرف الحقيقة ولم تتصد لإرشاد الأمة فسرحت هملًا وضلت عن الحق وعبدت ملوكها وليس هذا بغريب فإن طائفة من ملحدي الإسلام زعمت أن عبيدالله المهدي إله وقال فيه شاعرهم

حــــــل برقـــــادة المســـــيح حـــــل بهـــــا آدم ونـــــوح
حـــــل بهـــــا الله والـــــبرايا ومـــــا ســـــوى ذاك فهـــو ريـــح

«رقادة إسم مدينة في تونس الغرب» وإدعى الحاكم بأمر الله الفاطمي الربوبية بمصر وكان جهلة المسلمين يصيحون عند رؤيته قائلين سبحانك يا حي يا قيوم يا محيي يا مميت وفي أيام علي كرم الله وجهه قالت طائفة بربوبيته فقاتلهم وأحرقهم بالنار.

وفي زمن المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي ظهر المقنع الخراساني وإسمه عطاء وكان لدمامة وجهه يتقنع وأدعى الربوبية وتبعه خلق كثير فسحر أعينهم حتى خيل لهم صورة قمر يطلع تراه الناس من بعد وقد أشار إبن سناء الملك إلى ذلك بقوله:

إليـــك فمـــا بـــدر المقنـــع طالعًـــا بأســـحر مـــن أجفـــان بـــدري المعمـــم

ومن تصفح الأديان القديمة على أن بعض كهنة القوم كانوا يعرفون الله غير أنهم لم يتعرضوا لردع الناس إتقاء شرهم وخوفًا على مناصبهم ومقامهم وكان بعض فلاسفة اليونان يقولون بوجوده فقامت الأمة عليهم وحكموا على بعضهم بالموت ولا ريب أنهم أخذوا ذلك من كهنة المصريين كما أن العرب زمن الجاهلية كانت تعرف الله ولا تعبده وكان إسم الكعبة عندهم بيت

الله ومن أسماء رجالهم عبدالله لكن الشقاء غلب عليهم ومن أراد التفصيل فعليه بالتواريخ إذ ليس هذا محله.

أما معابدهم فكانت كثيرة جدًا بالصعيد وهي عمارة جسيمة منقوشة من الداخل بالرسوم الدينية وكثيرًا ما يكون عليها من الخارج صورة الحروب والوقائع والنصر على الأعداء لأنه كان من عادتهم أن كل ملك محارب ينقش جميع نزواته ونصراته خارج معبده ليفتخر به على معبوداته كأنه يقول لهم ها أنا تكبدت المشاق وقاسيت العذاب وإقتحمت الأخطار وقاتلت أعداء مصر وأنكيت فيهم وأتيت بهم مكبلين بقيود الأسر والعبودية وجميع هذه الهياكل مبني بالحجر المنحوت وحول كل واحد منها سور عظيم جدًا متخذ من اللبن« الطوب النيء» الجافي الجاهلي و يكون مع جسامته مرتفعًا جدًا بحيث إذا غلقت أبوابه ستر جميع الهيكل والبحيرة التي بجواره وقد أخطأ من شبهه بالمسجد أو بالكنيسة العامة لأنهما كان يسوغ لأي إنسان أن يدخله ما عدا الكهنة ولذا قالوا إن بناءه كحسنة يتقرب بها الملك بانيه إلى معبوداته فهو قاصر على عبادته خاصة وكانت الملوك تحتفل بهذه الهياكل وتزينها وتقطعها الإقطاعات وترصد لها الأطيان و غيرها وربما إشترك في عمارة الواحد منها جملة ملوك هذا يبنيه وهذا يتمه وهذا بنقشه وهذا بعمل صورة كمعبد «دندره» مثلًا فإن أول بنائه كان زمن بطليموس العاشر وتم في زمن «طباريوس» قيصر وتمت زينته مدة «نيرون» قيصر الطاغية وكلاهما من إمبراطرة رومه وفي مدة بنائه ولدا المسيح عيسى عليه السلام وهذا المعبد كغيره يشتمل على أربعة أقسام كلية وهاك وصفها

«القسم الأول» إيوان كبير معرض لضوء الباب التجه إلى الشرق وبه أربعة وعشرون عمودًا ضخمة جدًا حاملة لسقف معروش بالحجر الجافي العظيم وهذا القسم عبارة عن وجهة المعبد وليس له علاقة به لأنه طرقة يتوصل منها إليه وبه بابان صغيران أحدهما إلى الشمال والآخر إلى الجنوب كانا معدين لدخول الكهنة والقرابين أما الباب شالكبيرة فكان لا أحد النهر الثالث من السطح نفسه «هوروس الشمس محبوب معت ملك الآثار العظيمة مسكن أمون» الملك القوي النبيه رب السيف القاهر ملك الصعيد والبحيرة «رع أوسر معت ستب أن رع» ابن الشمس «أمن مررع مسو» الذي أبهج أرباب طيبه إلخ.

النهر الأول من السطح الشمالي «هوروس الشمس محبوب معت» ملك الصعيد والبحيرة «رع أوسر معت ستب أن رع» ابن الشمس «أمن مررع مسو» رب المدح مثل «تاتن» صاحب

الأرضين «رع أوسر معت ستب أن رع» صانع الآثار العظيمة بمدينة طيبة المختصة بأبيه أمون رع الذي أجلسه على كرسيه إبن الشمس «أمن مررع مسو» وهكذا باقي أوجه المسلة وفي كل وجه أو سطح ثلاثة أنهار من الكتابة غير أن جميع معانيها تدور على هذه المعنى وكان بقاعدتها صورة أربعة قرود من الحجر اللطيف تعرف عند علماء الآثار باسم «سينوسيفال»[1] نقل بعضها الفرنسيس إلى بلادهم عندما أخذوا المسلة السابق ذكرها ولهذا الآن لا يعلم ما كان الغرض من عمل هؤلاء المسلات وزعم العلماء أن الغرض هو تخليد اسم الملوك أصحابها وشهرة المعبد الذي تكون أمامه كالمئذنة وبرج الكنيسة إذ ليس لهما مدخل في قواعد الديانة أما باب المعبد فكان مزينًا بستة تماثيل جسيمة جدًا وكلها من عمل هذا الملك وهو رمسيس الأكبر المعروف باسم رمسيس ميامون أو سيزوستريس أو رمسيس الثاني أما التمثالان اللذان عن يمين الداخل ويساره فهما صورة هذا الملك وهو جالس على تخت ملكه وهما باقيان إلى الآن والأربعة الأخيرة على صورته وهو قائم ولم يبق منها غير واحد سليمًا تطرق إليه يد التلف إلا شيئًا قليلًا وهو تسوية وجهه وإزالة راحتي يديه و كل واحد منها متخذ من حجر واحد من الجرانيت الأسود وفي التمثال الغربي وهو السليم عرق أجر يمتد على العصابة أما عرض جلسته فتبلغ ٥٠ سنتي و ٢ متر وطولها ٧ متر وارتفاعها ٥ سنتي و ١ متر وارتفاع التخت أو الكرسي الجالس عليه هذا التمثال يبلغ ٩٠ سنتي و٢ متر و ارتفاع التمثال ٦٥ سنتي و ١١ متر منها ٦٥ سنتي و ٦ متر من القدم إلى الكتف ومنها ٢ متر ارتفاع الرقبة والرأس والباقي وهو ٣ متر قيمة العصابة والتاج وهو مركب من تاجي الصعيد والبحيرة داخلان في بعضهما فوق العصابة المصنوعة على شكل قماش به خطوط يحيط بالرأس ويرى في عنقه قلادة جميلة المنظر أو أسماط منضدة وعلى بدنه صورة ثوب متجعد بلطف به ثنيات يصل إلى ركبتيه وبوسطه منطقة معقودة فوق الخصر وعلى أحد جوانب التخت صورة زوجته الملكة «موت مَرْ نفَرَتْ أرى» وعلى قاعدته صورة الأم التي خضعت له من الزنوج وأهل آسيا واسمهم مكتوب في خانات سلوكية على صدرهم.

أما باب المعبد فهو محصور بين البرجين السالف ذكرهما ويبلغ عرض كل واحد منهما ٤٠ سنتي و ٨ متر وطوله ٣٠ مترًا وسعة الباب بينهما ٤ متر فعلي ذلك يكون عرض وجهة المعبد ٦٤ مترًا وحالتهما الآن غير جيدة وتؤذن بالسقوط ما لم تتداركهما عين الحكومة بالترميم والتقوية

[1] السينوسيفال حيوان خرافي يكون على هيئة إنسان برأس قرد وهو رمز على كوكب الشعري اليمانية أو هرمس.

ويغلب على الظن أن الشرقي منهما يسرع له الدمار إذا أزالت المصلحة الأتربة التي تسند جدرانه وكان في الجهة الشرقية من الباب سلم يصعد إلى عرشه ومنه يصعدان إلى أعلاهما وارتفاعهما ٢٤ مترًا ويرى فيهما بعض أحجار مأخوذة من المعبد الصغير الذي كان بناه هناك «خون أتن» لمعبوده قرص الشمس وجميع وجهة الباب منقوشة وعليها اسم رمسيس الثاني ونصوص بربائية تدل على وقائع هذا الفاتح مع أمة الخيتاس «في بر الشام وقد تحزب فيه على أهل مصر أغلب سكان آسيا الصغرى» وصورة المعسكر وعساكر الرماة بملابسهم وأسلحتهم والدرق في أيديهم وعلى الجهة اليسرى صورة الملك اثنين من الجواسيس وبجوار ذلك صورة مشورة حزبية معقودة ثم الخفر السلطاني مركب من العساكر المصرية وعساكر «الشردنه» ويعرفون بخودهم الكروية الشكل ذات القرون والأكرة الصغيرة وعلى الجناح الشرقي صورة المصاف أي الواقعة الهائلة التي كانت بين هذا الملك وأمة الخيتاس وعلى اليمين صورة الملك راكبًا عربته يرمي سهامًا على أعدائه وقد احتاطوا به من كل ناحية ثم تراهم قد انهزموا وولوا مدبرين ووقعوا في النهر وترى العربات المصرية أعلى وأسفل تسير صفوفًا مع الترتيب والإنتظام وعلى كل واحدة ثلاثة رجال أحدهم يقاتل الأعداء وثانيهم قائم بسياسة الخيل وثالثهم يقودها.

وفي نهاية الجهة اليسرى جيش العدوّ مصطفًا أمام جيش مصر وكل منهما زحف على عدوه وأسفل ذلك كتابة صورتها «عاد الوغد اللئيم ملك الخيتاس وهو يرجف فوق عربته الحربية» وعلى عربته كتابة بربائية ونصها «خلفه عشرة آلاف وتسعمائة مقاتل وهم جيش العربات أتى بهم من بلاد خيتاس الحقيرة» ثم ترى جيوش المتحالفين من الأعداء دخلوا بإزدحام في مدينة محصنة بالأسوار يحيط بها الماء وإلتجؤا إليها فرارًا من جيش المصريين وترى لهم صورًا متنوعة ظاهرة منهم أمة الخيتاس ولهم وجوه ضخمة متقبضة «متكرمشة» ورؤوسهم مستورة بقماش معقود بشريط على جبهتهم ومنهم أمة الشكلاش وعلى رؤوسهم قلنسوة نازلة من خلفهم ومنهم أمة الطورشا ولهم خودة دقيقة من قمتها ثم أمة الجكاري ولهم عصابة تشبه قلنسوة العجم وأسفل ذلك تفصيل الواقعة منقوش بالقلم القديم وهذا النصّ يعرف عند علماء الآثار باسم قصيدة «بنتاؤر» ولم نتعرض لذكرها إذ ليس هذا محله فراجعها في كتاب توفيق الجليل للمرحوم رفاعه بك نمرة ٨٣ .

وكان ظاهر الحوش الذي بناه هذا الملك بهذا المعبد مستورًا بالنقوش والنصوص البربائية وتواريخ وقعاته غير أن يد الدهر تسلطت عليها فأزالتها بالكلية ومحتها بالطريقة القطعية لكن

لحسن الحظ نجد صورتها في كثير من المعابد الباقية من أيامه.

أما نقوش داخل هذا الحوش فنصوص دينية ولا فائدة في ذكرها هنا ويرى به أسماء رؤساء بلاد وهي عبارة عن الأقاليم التي كانت خاضعة لمصر مدة حكم هذا الملك باقي نقوش هذه الجهة فمستورة بمسجد سيدي أبي الحجاج وإذا كشف هذا المكان لابد وأن نجديه بعض أشياء تاريخية أو جغرافية وترى بجوار حلية الباب الذي شيده أمونوفيس الثالث ما بقى من التصاوير التي كانت تدل على العبادة وعلى حائط رميس صورة الأبراج والمسلتين والستة تماثيل ثم صورة سبعة عشر من أولاده وفي كل واحد منهم باقة أزهار كأنهم أتوا ليحضروا حفلة عامة وخلفهم فوج من الخدم والحشم ومعهم نيران ليقدموها قربانًا وبين قرونها علامات مختلفة .